

اليم، فقد ذكر على لسان (أم حمود) مايلي: "البعض يقول: إنَّ وضعنا حسن.. بل إننا بألف خير، فهناك أحياء لا تأتيها الكهرباء إلا بعد منتصف الليل، وأحياء أخرى لا تشرب إلا من ماء المطر" (ص ٢٧٤). فالكاتب هنا ينقلنا مباشرة إلى مدينة أو أرض أو وطن، حال أهله، كحال رُكَّاب السفينة، الذي يعاني مما وصف سابقاً... ومثل ذلك ينطبق على أقوال (بن جدعون) لمساعدته (موسى بن دهمان) عندما طلب منه أن يستخدم عناصره خراطيم المياه والغازات المسيلة للدموع، وأن يطلق الكلاب، وأن يدوس (الركاب/ المواطنين) بحوافر الخيل وبعجلات الآليات (ص ١١٥).

إن تلك المشاهد التي يمكن فهمها على أنها توسع رموز الرواية، ربما تكون قابلة للنقاش عند بعض القراء، لا من زاوية النقلات المفاجئة التي تكاد تضحي بمبدأ الإيهام الذي يتوخى أن يلازم الأثر الروائي، بل من زاوية وحدة انطباع تقود إليها الأحداث الوقائع والأفعال والأقوال التي تتحدث عن أرض مسلوقة، استباحها غرباء، عرفنا انتماءهم، ووعينا مقولاتهم، وأطلعنا على خلفياتهم الفكرية والدينية والسياسية...

إن القارئ يستطيع أن يفهم العجائبية والغرائبية المتمثلة في تحويل (بن جدعون) وأعوانه، الشاعر (هايل أبو سنام) إلى خروف، والمهندس (زيد شيخ الشباب) إلى كلب، في كون الشخصية الروائية ليست من لحم وعظم ودم، كما استقر في النقد الروائي، وفي رغبة الكاتب أن يقول أشياء إضافية، منها أن الشعراء الذين عرفوا بتمردهم، وبتبشيرهم بالثورة غالباً، قد تحولوا إلى خراف وادعة لا تجرؤ على أن تقول كلمة "لا" للبغي والطغيان...! وأن المهندس والمبدع الخلاق قد أصبح يحيا، كالكلاب، على الفتات والفضلات، ولا يغضب لذلك... ولكن القارئ نفسه يمكن أن يتساءل لماذا لم يُبقِ الكاتب، وهو المسيطر على كل شيء في روايته، على بعض المسافرين متمرداً على الخضوع والهوان، خارجاً عن ظاهرة الأرقام التي تحولت إليها كل ركاب السفينة؟

قد يقال أن القبطان بقي كذلك، ولم يركع، ولكن هل يكفي صمود فرد بعينه لتغيير الموقف القائم واللوحة السوداء؟ إن الذي نشاهده اليوم في الضفة والقطاع هو صمود شعب بأسره، لا فرد بعينه، وانتفاضة أمة بكالمها: أطفالاً وشباناً ورجالاً ونساء... ألم يقل الروائي نفسه على لسان (رستم الغطاس): "صدقوني لا أهمية للفرد... الأهمية وحدها للشعب... تلك الكينونة الأبدية التي لا تحول ولا تزول... تلك القوة الخالدة المتجددة على مر الأيام والسنين" (ص ١٥٥)؟؟ فكيف